مقدمة :

كانت الحروب الصليبية فرصة لمجتمعي الشرق الإسلامي و الغرب المسيحي لتعميق معرفة بعضها للبعض ، و اكتشاف كل طرف عادات و تقاليد الآخر. فإذا كانت آليات التعارف قد اقتصرت قبل ذلك على الرحلات و التجارة ، فإن هذه الحروب التي تمخض عنها استقرار الصليبيين في الديار الشامية شكلت للمسلمين فرصة أكبر لتكوين صورة واضحة عن العالم الإفرنجي . وقد انعكست هذه الصورة في ثنايا الكتابات التاريخية الإسلامية التي عاصر أصحابها تلك الحروب أو عايشوها عن قرب ، مما يسمح للباحث برسم خطاطتها العامة . من بينهم أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار[1]

نوعية النص وطبيعته : نص أدبي ذو صبغة تاريخية ، هو العنوان الذي يمكن أن نعنون به النص المقتطف من كتاب الاعتبار ، من الباب الأول (أسفار و حروب) ، في فصل بعنوان (طبائع الإفرنج و أخلاقهم) ، يقول الكاتب : " ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا و عاشروا المسلمين ... ولا يدخل داري لحم خنزير فأكلت و أنا محترز و انصرفنا ".[2]

صاحب النص : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ولد بقلعة شيزر في 27 جمادى الثانية 488 هـ / (1095م) نشأ بها و أخرجه عمه أبو العساكر سلطان بن علي خوفا منه على نفسه لما رأى من شجاعته و إقدامه ، وقدم حلب مرارا و كان من الأمراء و الفقهاء و الأدباء الشعراء الشجعان الفرسان ، عرف بالأمانة في النقل و الصدق في الرواية و الدقة في الملاحظة و الذكاء في التعبير ، تأثر بعمه سلطان كما تأثر بوالده الذي كان معروفا بتلاوة القرآن و الصيام و الصيد . له مصنفات عديدة في الأدب على الخصوص ، وكتب في التاريخ منها : "بغية الطلب في تاريخ حلب" ، "تاريخ الحصون و القلاع" ، "التاريخ البلدي" ، "لباب الآداب" ، "أخبار النساء" ، "كتاب البديع في البديع" .

قالوا عنه[3] : الذهبي سماه : "أحد أبطال الإسلام" .

ابن الأثير وصفه بأنه : "كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها" .

نشير إلى أن ميلاده تزامن مع دخول الجيش الصليبي إلى أنطاكية 492 هـ بعد حصار طويل ، كما أن وفاته كانت بعد سنة من استرجاع بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي .

السياق التاريخي للنص: مع بداية القرن 5 هـ، قاد الصليبيون حملة نحو الشام فشرعوا في تقتيل المسلمين وتدمير ممتلكاتهم والشماتة بعدهم، وبعد أن انكسرت حدة الصراع بين المسلمين والفرنجة، أخذوا يمارسون حياتهم اليومية في المدن التي انتزعوها، ويقومون بعمارتها، وقد تميزت حياتهم الاجتماعية بسمات لم تكن معهودة عند المسلمين، وهو الأمر الذي استرعى المؤرخين والأدباء، فرصدوها وتحدثوا عنها حديثا ممزوجا بمشاعر الاستغراب، مثلما نجد في كتاب الاعتبار.

التحليل:

الفكرة الرئيسية: يتحدث النص عن تبلد بعض الافرنج أثناء معاشرتهم للمسلمين وانعكاس ذلك على طباعهم [الحياة اليومية].

تصميم النص: يمكن تقسيم النص إلى ثلاث وحدات رئيسية:

1- تبلد بعض الافرنج بعد معاشرتهم للمسلمين.

2- صداقة ابن منقذ لرئيس ناقذ الحكم بأنطاكية هو تادرس بن الصفي.

3- حكاية افرنجي لا يأكل الخنزير، كما أخبر بذلك صديق ابن منقذ.

الشرح التفصيلي: وردت في النص كلمات تحتاج إلى المزيد من التفصيل.

أ- أنطاكية: وهي مدينة سورية لها أهمية كبيرة لدى المسيحيين في الشرق بها العديد من الكنائس، استولى عليها الصليبيون سنة 1097م بعد أن حاصرها بوهيموند 4 ليصبح أول حاكم صليبي لها، وتكون هي أول إمارة صليبية ومنهم من يقول أنها ثاني إمارة صليبية على اعتبار إمارة الرها هي الأولى.

ب- الافرنج أو الفرنجة أو الفرنسيس هم مجموعة قبائل جرمانية غربية التي شكلت ما عرف باسم تحالف القبائل الجرمانية، وهم النسبة الغالبة في الجيش الصليبي نظرا لما كانوا يعانونه من مجاعات وأوبئة.

ج- تادرس بن الصفي: رئيس ناقذ الحكم في أنطاكية وصديق أسامة بن منقذ.

التعليق: النص من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ومخطوطة الكتاب موجودة بمكتبة الاسكوريال بإسبانيا، وهي من 67 ورقة ولكنها مخرومة الأول حيث ضاع منها 21 ورقة فيكون أصلها 88 ورقة، وهي غير مؤرخة نقلت بعد وفاته ونشرت أول مرة سنة 1884 وهي حافلة بالأغلاط النحوية والصرفية وفيها عبارات عامية مثل أيش [أي شيء].

وقيمة نصوص الكتاب في أن ما رواه من حوادث تاريخية ومعارك، سجلها بعد أن رآها، فكان فيها شاهد عيان، وفي بعض الأحيان كان مشاركا فيها، لذلك كان من أهم مصادر التاريخ لتلك الحقبة من عصر الحروب الصليبية، وتمت ترجمة الكتاب إلى العديد من اللغات، والنسخة التي بين أيدينا هي ترجمة النسخة الانجليزية فليب حتي، ويعتبر المستشرق الفرنسي هارتويغ درنبورج أول من نشره، والمؤاخذة الوحيدة التي يمكن أن تشكل شكا في صحة ما كتب أسامة بن منقذ هي سنه الذي بلغ التسعين، ونحن نعرف أن هذا السن تصاحبه آفة النسيان.

أهمية النص التاريخية: النص عبارة عن مقطع من مذكرات أمير فارس حارب الصليبيين وخاض ضدهم معارك بأنفة وعزة، لكن ذلك لم يمنعه من معاشرتهم وهو الأمر الذي خطه بأمانة كما عرف عنه، فصور لنا بذلك أخلاقهم وطباعهم فتارة معجب بشجاعتهم وبسالتهم في الحرب، وأخرى مستغرب من طريقة حكمهم أو مستغربا بما شاهد أخلاقهم، الأمر يدعونا إلى المزيد من البحث في مصادر أخرى مع أخرى كرحلة ابن جبير للشام، بغية أخذ الصورة العامة للحياة الفرنجية بها، والتوقف عند الحوار والصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والذي لا زالت انعكاساته وتجلياته ظاهرة في واقعنا أو في زماننا الحاضر، وإن كانت بأشكال مختلفة، تحتاج إلى مزيد من البحث.

صور ابن منقذ في ثنايا ما كتب واقع الفرنج، بشكل مزج فيه بين النظرة الإيجابية والسلبية.

المراجع والإحالات:

1- أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير فليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

2- نفسه، ص: ١٨٥.

3- مقدمة المحرر كتاب الاعتبار.

4- الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج 12، ص: 91.